نشأة المدن وبداية التطور الحضاري في العراق القديم

د.أحمد ثليجي، /أستاذ محاضر –أ-

جامعة زيان عاشور، الجلفة

الملخص:

يعتبر العراق القديم مهد الحضارات القديمة، وقد مر بمراحل كثيرة متعاقبة من التطور التدريجي حتى بلغ مرحلة النضج والازدهار، وقد بدأ ذلك منذ استيطان الإنسان العراقي القديم للكهوف حتى ظهرت الحواضر والمدن الكبرى، وقد كان مؤشر الاستقرار الأول هو اكتشاف الزراعة وإنتاج الغذاء، وظهور أولى المستقرات والقرى الزراعية البدائية، واهتدائه إلى صناعة الفخار واكتشاف المعادن، وبناء المعابد نتيجة نمو الفكر الديني والتي لم تقتصر على الجانب الديني فحسب بل أصبحت مركزا لكافة النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى أصبحت تسمى مؤسسة المدينة- المعبد.

هذه الأخيرة ستتحول إلى ما يسمى بنظام المدينة الدولة والذي ستنفصل فيه السلطة السياسية عن السلطة الدينية، ويزداد توسع هذه المدن بشكل كبير.

Abstract:

Ancient Iraq is considered the cradle of ancient civilizations, and it went through many successive stages of gradual development until it reached the stage of maturity and prosperity, and this began since the ancient Iraqi people settled in caves until metropolises and major cities appeared, and the first indicator of stability was the discovery of agriculture and food production, and the emergence of the first settlements And the primitive agricultural villages, and its conversion to pottery making and the discovery of minerals, and the construction of temples as a result of the growth of religious thought, which was not limited to the religious aspect only, but also became a center for all

economic, social and political activities until it became called the temple-city institution.

The latter will transform into the so-called city-state system, in which political power will separate from religious authority, and these cities will expand greatly.

المقدمة:

تعتبر حضارة العراق القديم من الحضارات الموغلة في القدم والتي تعود إلى أزمنة غابرة تمتد إلى أيام الكهوف أو ما يعرف بمرحلة الجمع والالتقاط، التي سبقت تعلم الإنسان للزراعة وممارسته لها وقد مرت بمراحل متعاقبة من التطور حتى بلغت مرحلة النضج والتطور والازدهار.

ولقد كان على إنسان العراق القديم في العصور الحجرية أن يكافح من أجل البقاء وتحقيق سبل العيش البسيط، معتمدا في غذائه على الصيد والجمع والالتقاط للثمار والبذور، ثم قطع بعد ذلك خطوة حاسمة في العصر الحجري الحديث عندما توصل إلى معرفة الزراعة وتدجين الحيوان في حدود 10000ق.م.

ولذلك فمعرفة الإنسان للزراعة تمثل منعرجا خطيرا في حياته نتيجة للتحولات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن ذلك، والتي أدت إلى ضمان شبه أكيد للغذاء عن طريق إنتاجه بدلا من رحلات البحث والتنقل في سبيل جمعه والتقاطه، وهو ما أدى بدوره إلى الاستقرار وظهور القرى الزراعية البدائية والتي تحولت بمرور الوقت ونتيجة التداخل والتكامل فيما بينها إلى مدن وحواضر كبيرة شاهدة على التطور الحضاري للعراق القديم.

وسنحاول أن نعالج هذا الموضوع الذي يتعلق بالتمدن وبداية التطور الحضاري في العراق القديم من خلال التطرق إلى خمسة عناصر أساسية تتمثل في:

1- المستقرات والقرى الزراعية البدائية.
2- الفخار والمعدن أولى خطوات التمدن.
3- بوادر ظهور المدينة.
4- المدينة المعبد(Temple-city).
5- نظام المدينة الدولة (City-state).

1- المستقرات والقرى الزراعية البدائية:

لقد نشأت المستقرات والقرى الزراعية البدائية والبسيطة في شمال العراق، إلا أن الظروف الطبيعية العديدة المختلفة لم تسمح بنمو واستمرار هذه القرى. وقد بدأت المقوّمات الحضارية الأولى بالانتشار صوب الجنوب إلى المنطقة التي عرفت في العصور التاريخية ببلاد سومر[1].

ولعل من أهم الشواهد الدالة على قدم وأصالة حضارة العراق القديم أن باستطاعة الباحث تتبع مراحل تطورها خلال العصور الزمنية المتعاقبة، وأبرز مثال يمكن ذكره في هذا الصدد هو تعاقب مراحل الاستيطان في القطر العراقي بشكل مستمر ومتسلسل ابتداء من استيطان الكهوف وانتهاء بظهور المدينة في بداية فجر التاريخ[2]. وقد وجد المنقبون في شمال العراق أقدم الآثار التي تدل على استيطانه في الكهوف، والدليل على ذلك ما وجد في كهف شانيدار[3] في محافظة السليمانية.

وقد مر على إنسان بلاد النهرين أجيال، بل لعلها قرون، في المنطقة التي تعتمد على الأمطار والري الطبيعي، قبل أن يكتشف كيفية تحصيل قوت كاف من مجموعة من الحقول متقاربة، بحيث يمكن للزارع وعائلته أن يستغلوها من مكان سكن ثابت، ومن ثم يمكنهم أن يورثوا أحفادهم البيت والحقول مجتمعة، وهذا الالتصاق بقطعة من الأرض الصالحة للاستغلال أصبح يعتبر في نظر تويني نوعا من العبودية، وذلك في المجتمعات التي كانت تزود أبناءها بإمكانات اقتصادية بديلة، أما في الأصل فقد كان استقرار المزارعين في أرض معينة مكافأة اجتماعية طال انتظارها، إذ أنه بذلك حقق غاية تكنولوجية مرّ عليه زمن وهو يتابعها[4].

كما أن باستطاعة الباحث أن يميز في ضوء التنقيبات الأثرية بين مرحلتين رئيسيتين للاستيطان في العراق القديم، الأولى: تشمل الاستيطان في المقرات المكشوفة (موقع بردا بلكا، في محافظة السليمانية50- 60 ألف سنة)، ثم الاستيطان في القرى الفصلية الذي يمثل مرحلة الانتقال من نهاية العصر الحجري الوسيط إلى العصر الحجري الحديث، وخير مثال على مواقع الاستيطان الفصلية قرية (زاوى جمى) التي تقع على بعد 4 كلم من كهف شانيدار والتي يرجع تاريخها إلى حدود 9200 ق.م [5]. أما المرحلة الثانية: والتي يمكن تسميتها بمرحلة الاستقرار فهي تشمل المستوطنات الدائمية، أي القرى الزراعية ابتداء من قرية جرمو[6] في شمال القطر العراقي وانتهاء بالعبيد[7] في الجنوب.

ويمكن التأكيد على أن نمو وتطور المستقرات والقرى الزراعية قد حصل في جنوب العراق في حدود الألف الخامس قبل الميلاد، وذلك عندما تطورت معرفة الشروط المختلفة للزراعة المروية، وعندما فهم الإنسان العراقي القديم شروط الظروف الطبيعية التي يعيش فيها استخدمها بأفضل الأشكال المتاحة، وقد كان لإدراكه

اختلاف ارتفاع منسوب نهر الفرات عن منسوب نهر دجلة في شمال بغداد الحالية، وارتفاع منسوب نهر دجلة عن منسوب نهر الفرات في الجنوب آثاره الكبيرة على مجمل ظروف نمو وتطور الزراعة في العراق القديم[8].

وقد كان العمل الزراعي في السهل الرسوبي العراقي يتطلب العمل المضني المستمر لجعل الأرض صالحة للزراعة، وتأمين ريّها على عكس ما يحدث في الزراعة التقليدية القائمة على ما يجود به المناخ من مطر دون أي تدخل للإرادة البشرية.

ومن خلال هذا الإدراك عمد إنسان بلاد النهرين إلى شق القنوات الضخمة التي يمكن تتبع آثارها حتى الآن، كما أقام السدود على أفواه المنخفضات الطبيعية القريبة من المجاري، وحفر الخزانات الضخمة لخزن المياه للاستفادة منها، في أوقات شح المياه، وقد كان لهذه المجهودات المضنية في تطويع العناصر الطبيعية المختلفة الدور الحاسم في نمو وتطور المجتمعات العراقية القديمة، ووضعها على طريق الحضارة البشرية الأولى9.

واستمرت القرى بالتوسع في ممارسة الزراعة، وفي التطور التدريجي في صناعة الفخار والأدوات الحجرية التي كانت تستعمل في مختلف شؤون الحياة اليومية خلال الأدوار اللاحقة لدور جرمو المذكور آنفا، والأهم من ذلك أن نهاية دور العبيد في جنوب العراق في حدود 3500 ق.م كانت بداية المرحلة الجديدة من الاستيطان في العراق القديم، تلك هي مرحلة ظهور المدينة حسب ما أشار إليه الباحث العراقي فاضل عبد الواحد علي[10].

2- الفخار والمعدن أولى خطوات التمدن:

تعد صناعة الفخار واحدة من أقدم الابتكارات التي توصل إليها الإنسان خلال استيطانه في القرى الزراعية الأولى، وربما كان تزايد الإنتاج وضرورة وجود طريقة لتخزين الفائض من المنتجات الزراعية الدافع الأساسي لهذا الابتكار المهم الذي عرف في منتصف الألف السابع قبل الميلاد. ومع نهاية العصر الحجري الحديث بدأ عصر جديد تميز باستخدام النحاس في صنع الأدوات المختلفة، وسمي بالعصر الحجري النحاسي (Calcholithic)

ومعروف أنّ الإنسان في العصور الحجرية كان يصنع أدواته (الفؤوس والسكاكين والمكاشط) من لبّ الحجارة ومن شظاياها أيضا، لأنه لم يكن قد توصل بعد إلى معرفة المعادن، لكنه فيما بعد أضاف إلى ابتكاراته السابقة ابتكارا جديدا آخر عندما استعمل في حدود الألف السابع قبل الميلاد الطين في صناعة الأواني والأوعية الفخارية، التي عثر على أقدم نماذج منها في قرية جرمو، ثم تطورت في دور حسونة[11]، لتصل إلى ذروتها في دور حلف[12] من حيث الدقة المتناهية للفخار، ومن حيث جمال الزخارف الآدمية والحيوانية والهندسية ذات

الألوان المتعددة الجذابة[13]. كما أن الحديث عن التعدين في حضارة العراق القديم يقودنا بالضرورة إلى ذكر مهارات الصناع والحرفيين التي تجلت في أروع النفائس الأثرية التي تم اكتشافها في المقبرة الملكية في أور والتي صارت واحدة من المعالم البارزة والمميزة لفنون الصياغة في العراق القديم، وكان من جملة ما عثر عليه في هذه المقبرة مجموعات نفيسة من الحلي والقلائد والأساور والخواتم والدبابيس وأدوات زينة أخرى مصنوعة من النحاس والذهب والفضة والأحجار الكريمة، يضاف إلى ذلك أدوات حربية كالرماح والسكاكين وغيرها[14].

ولذلك كان استخدام المعادن في العصر الحجري النحاسي أضخم اكتشاف حصل عليه الإنسان القديم بعد الزراعة والفخار، إذ شكل بؤرة اقتصادية تركت آثارها على أكثر من صعيد، وبخاصة في مجال تصنيع الأدوات.

ففي هذا العصر حصلت ابتكارات حضارية مهمة وسريعة اختلفت وتائرها حسب المناطق، لكن مركزها الأهم كان في القسم الشمالي من العراق القديم، حيث سكنت المجتمعات التي تنتمي إلى ما يسمى بالحضارة الحلفية، التي اشتهرت بتصنيع الفخار الرائع ذي الدلالة الزمنية والحضارية الكبيرة، وتلتها الحضارة العبيدية التي انطلقت من جنوب بلاد النهرين، ومعها تجديدات كثيرة في مجال العمارة والفنون والاقتصاد.

وازداد عدد السكان، وانتشرت المستوطنات، وأُتقن الري الصناعي، وأصبحت الزراعة أكثر إنتاجية، وتحسن البناء، وتنوعت أشكال البيوت، وارتفع مستوى تنظيمها، وانتشرت الأبنية الكبيرة ذات النفع العام "كالمعابد" التي تدل على تقدم التنظيم الاجتماعي وترسّخت مفاهيم الأسرة والعشيرة، وتعمق التخصص، وتقسيم الأعمال على أسس اقتصادية جديدة[15].

وفي الواقع لا يتمثل التحول أو الانقلاب الحضاري من العصر الحجري الحديث إلى العصر الحجري النحاسي باكتشاف النحاس، والاستفادة منه في مجالات شتى، بل أيضا بالتغيرات الاجتماعية التي طرأت على التجمعات القروية الزراعية التي قوت من تلاحمها واتصالها ببعضها.

3- بوادر ظهور المدينة:

لقد كانت هذه القرى على اتصال وثيق فيما بينها، ودلّ على ذلك التشابه الكبير بين مختلف أصناف الأدوات المكتشفة فيها، وكان هذا التشابه من المعالم الأساسية للعصر الحجري الحديث. ففي دور حلف ،الذي سبق وأشرنا إليه، أصبحت سمته الرئيسية هي انتقال المواد من مكان إلى آخر، وبالتالي قيام تعاون وثيق، مما يعني أن التجمعات القبلية ضمن منطقة ما قد بلغت مرحلة من التقدم قضت بتنظيم أمورها على أسس جديدة، وخاضعة لشريعة متقاربة ناتجة عن تراكم العادات والتقاليد والأعراف.

أما في مرحلة دور العبيد الذي هو نتيجة انصهار حضارة حسونة وسامراء مع حضارة اريدو وغيرها من المجموعات السكانية الأخرى، التي تسكن وديان الأنهار ،فإنه مما يعكس اختلاط الشعوب، الذي كان يجب أن يتوج بتنظيم السكان بموجب المبدأ الإقليمي، حيث كان باستطاعة هؤلاء السكان في جنوب العراق القديم إيجاد نظام اقتصادي زراعي، يؤمّن الاستقرار بالاستفادة من السقاية الطبيعية، بزراعة ضفاف المجاري المائية، مع تطوير نظام السقاية والري من أجل زيادة مساحة الأرض المتاحة من أجل تطوير الإنتاج[16].

وقد شكلت الحاجة عاملا مهما له تأثير أساسي على الطريقة التي تطور بها المجتمع، إذ أنه بقدر ما تكون المجموعة كبيرة ومنظمة بشكل أفضل، بقدر ما تكون الأراضي التي تستصلح أكبر، وبالتالي سيكون المجتمع أكثر ازدهارا، فقد كان الأمر يحتاج فقط إلى أن تنمو مجموعة سكانية إلى ما فوق حجم القرية حتى تكون مثالا يحتذى به لتغيير واسع يصل بهذه المجموعة إلى تكوين المدينة.

ولقد تكون خلال الألفيتين الخامسة والرابعة قبل الميلاد الوسط الاقتصادي والاجتماعي الذي ستولد فيه المدن، ووجدت فيها صروح كبيرة تنتصب فوق بعضها البعض من مرحلة إلى أخرى، لتكوّن المصاطب المتتالية، ولهذه الصروح كلها مخطط ثلاثي الأقسام "Tripartite" يضم قاعة مركزية[17]، وغرف صغيرة جانبية اعتبروها معابد، أو قاعات استقبال لشيخ القبيلة لكي يجمع فيها رجال عشيرته وبالتالي يظهر مفهومان هما: مفهوم الزعامة لتعريف نمط التنظيم الاجتماعي، ومفهوم التسلسل المتنامي للمجتمعات الذي يمكن قراءته في كبر وتعقيد المنازل الجماعية[18].

وتجلى انقسام المجتمع إلى طبقات في التناقضات التي كانت قائمة بين سكان المعبد من جهة، وسكان أحياء المدينة من جهة أخرى، وفي المرحلة ما بين 4500 و3500 ق.م تشكلت في وديان الأنهار تجمعات ثقافية هامة، تعبّر عن مفهوم المدينة حيث امتزجت القبائل والأقوام مع بعضها، وكوّنت اتحادات بشرية كبيرة أصبحت فيما بعد الأساس الاجتماعي الذي قامت عليه الدول.

ولفهم أهمية المدينة كعامل في تكوين المجتمع ينبغي ألاّ نعتبرها، كما قال هنري فرانكفورت، أنها مجرد مجموعة من الناس، حيث أن أكثر المدن الحديثة فقدت طابع الفردية الخاص، الذي نستطيع أن نلحظه في مدن إيطاليا في النهضة وفي أوربا في القرون الوسطى، وفي اليونان وفي بلاد النهرين، ففي هذه البلدان لم يكن الكيان الطبيعي للمدينة سوى علاقة خارجية للقابليات المجتمعية الوثيقة التي تسيطر على حياة كل ساكن داخل أسوارها، فالمدينة تفرق بين مواطنيها وبين سكان البلاد الآخرين، وتعيّن علاقاتهم بالعالم الخارجي، وتنتج شعورا ذاتيا عنيفا عند سكانها الذين يرون في أعمالهم المشتركة مصدر فخر واعتزاز[19].

ومن جانب آخر فقد اتخذت التناقضات الاجتماعية والاقتصادية طابع المجتمع الطبقي، وقامت الدول على ضفاف الأنهار في وقت كان الرعاة والمزارعون يتجمعون فيه حول المدن، محاولين الاستفادة من ثرواتها وتقدّمها الحضاري.

ولقد أدى اختلاف الشروط التاريخية لظهور الدول إلى تعدد أنواعها مثل: كيش نيبور اريدو، والوركاء، وأور، ونفر[20] ، لكن هناك سمة تميز دول ذلك العصر كافة، هي الصراع الطبقي بين الحاكمين والمحكومين، فقد أصبحت الفوارق الاجتماعية ظاهرة بوضوح بين طبقات المجتمع، وخير دليل على ذلك المكتشفات الأثرية من مقبرة أور، حيث اكتشف نوعان من القبور: قبور ملكية، وقبور عادية، فالقبور الملكية كانت أبنية تحت الأرض، وتتألف من عدة حجرات، إضافة إلى اللقى الجنائزية المتنوعة والثمينة، على عكس المقابر العادية المبنية من الطين وبشكل بسيط، وبقي المعبد المركز الاقتصادي والديني المسؤول عن النواحي الإدارية، لكن المؤسسات الإدارية بدأت تؤدي الدور الرئيسي خلال مرحلة السلالات الأولى بمعزل عن المعبد، ويثبت هذا بناء القصور الملكية، فقد انتشر بناء القصور في ممالك المدن- الدول، وأصبحت البلاد تدار وتحكم من القصر وليس من المعبد[21].

وعلى العموم فلدراسة تطور المدن، ومن خلال تتبع ما ورد في المخلفات الأثرية، نلاحظ التزايد التدريجي لدور المعابد التي أصبحت في منتصف الألف الرابعة قبل الميلاد أي في العهد السومري المراكز الرئيسية لمزاولة ومراقبة النشاط الاقتصادي والاجتماعي في مدن بلاد النهرين[22]، وعليه يمكن التمييز بين نوعين من المدن: ففي البداية كانت المدينة- المعبد ثم تطورت فيما بعد حتى أصبح يعبر عنها بما يسمى بنظام المدينة- الدولة الشهير.

4- المدينة المعبد (Temple-city):

لقد استدعى نمو الفكر الديني ضرورة توفير المكان اللائق لسكنى القوى الإلهية وهو المعبد، والذي أصبح يحتل مكانة حيوية في مجتمع بلاد النهرين، حيث أن وظيفته لم تقتصر على الجانب الديني باعتباره مكان العبادة وتأدية الطقوس الدينية وتقديم القرابين، بل أصبح مركزا لكافة العلوم والمعارف، ولمزاولة النشاط الاقتصادي والاجتماعي وبالتالي السياسي، وهكذا يتحدث الباحثون الأثريون والمؤرخون عن نشوء مؤسسة المدينة- المعبد.

وقد كان المعبد (في الأكادية bitu "البيت") في البداية عبارة عن غرفة صغيرة كما يظهر ذلك من الآثار المكتشفة في الطبقة السادسة عشرة من تل اريدو، ولكن سرعان ما تطور بناء المعبد، وازدادت مساحته،

وتعدّدت مرافقه، وتوسعت مهماته حتى صار يضم صنوفا متعدّدة من الكهان والكاهنات، ويمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية[23].

واحتفظت مدن العراق بأطلال بسيطة لمعابد العصر السومري الأول، ومنها معبد بلدة خفاجي الذي بني وسط مساكن بلدته، وشيد بالتخطيط المستطيل المعتاد فوق مسطح بلغ ارتفاعه نحو ثلاثة أمتار ونصف المتر، وتقدمه (في مرحلة تجديده الحادية عشرة) فناء صغير،وأحاطت به حجرات جانبية ضمه معها سور بيضاوي، وتقدمت هذه المجموعة ساحة كبيرة أخرى تضمنت فيما يبدو مباني الإدارة ومساكن الكهنة وأتباع المعبد، وأحاط بهذه الساحة وبمجموعة المعبد معا سور بيضاوي آخر كبير يحف بمدخله صرحان مرتفعان[24].

والمعابد[25] التي كانت تمثل أهم المعالم العمرانية في بلاد النهرين، اتبعت فيها نظم البناء الأساسية التي تعود في قدمها حتى مرحلة العبيد. وفي أوروك حيث تبدو أقدم مراحل حضارة فجر التاريخ بكل مزاياها على أوضح ما يكون، وجدت في الأماكن المقدسة لـــ "إنانا" إلهة الحب والحرب مخازن واسعة من المسامير الفخارية التي كانت تستخدم لزخرفة الجدران في الأبنية الدينية الهامة. كما أن سور المعبد وجدت له بقايا في طبقات أثرية متعددة إضافة لنماذج من الأختام الأسطوانية، وكان المعبد قد أقيم على قاعدة من الحجارة لضمان ثباته طويلا، وبلغ طوله 75م، وعرضه 29م والأرجح أن الحجارة كانت تجلب من منحدرات هضبة شبه الجزيرة العربية[26].

وشغلت منطقة المعابد "إي- أنا" ثلث مساحة مدينة أوروك، بينما الثلثين للسكان، وأصبحت في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد أكبر مدينة في العصور المبكرة، وكانت أسوارها تحيط بمساحة تصل إلى حوالي 40 هكتار، وهي محاطة بعدة مدن وقرى صغيرة[27].

وبصفة عامة فإن معظم مدن جنوب بلاد النهرين تتألف من عدة مناطق، مقسمة بمجاري الأنهار القديمة والقنوات، وفي هذه الفترة (فترة الكتابة الأولى) بدأت المستوطنات تتوسع بمحاذاة القنوات الاصطناعية القصيرة نوعا ما، وهي المرحلة التي تقلص فيها عدد المستوطنات بعض الشيء نتيجة نمو وكبر بعضها على حساب الآخر، حيث بدأت تتطور بشكل ملحوظ وتنمو المستوطنة المركزية ذات الموقع الاستراتيجي والأهمية الزراعية، والتي يوجد فيها المعبد الرئيسي.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المدن الناشئة في جنوب بلاد النهرين، والتي تحمل الطابع القدسي بحكم دور المعابد فيها، قد قامت بدور مراكز القوة لتنظيمات سياسية كبيرة ذات تأثير ديني واضح[28]. فالتنظيم الكهنوتي له أهمية ذات دلالة في تنظيم المجتمع بشكل عام. وقد تولى القيام بذلك أقلية نخبوية ذات سلطة وسطوة، وقد

كانت هذه السلطة التي تملكها هذه الأقلية مشخصة إلى درجة واضحة بمفاهيم دينية ولا أدل على ذلك مما ذكرناه آنفا حول حي "أي- أنا" الديني في أوروك والذي عرف لاحقا بحي الإلهة "إنانا"[29] المقدّس.

5- المدينة الدولة (City-state):

إن المرحلة التاريخية تبدأ مع توصل الإنسان إلى معرفة التدوين والكتابة، وهي المرحلة نفسها التي بدأ فيها ظهور ما يسمى بالمدينة الدولة، حيث تبلور أقدم مجتمع متحضر في خلايا منفصلة في عدد من المدن المتمايزة التي كانت تتمتع باستقلال ذاتي، وتشكل وحدات سياسية مستقلة، وحول كل مدينة مساحات من الأراضي الزراعية التي توفر لها احتياجاتها.

ففي البداية كان هناك مظهر جديد للمدنية السومرية، وهو تجمع أقلية من العمال غير الزراعيين في المدن، وهذه الأقلية كانت تعيش على الفائض من المنتوج الزراعي للغالبية، وهذه المدن قامت أصلا كمراكز للعبادة- كما أشرنا إلى ذلك في العنصر السابق- حيث كانت الجماعة تجتمع في أوقات معينة للقيام بطقوس دينية ولتنظيم الأعمال العامة العائدة بالفائدة عليها، وكلا الأمرين كانا متلازمين، ولعلّ مراكز العبادة هذه كان يستقر فيها أصلا فئة قليلة من السكان، ولكنها تطورت فيما بعد لتصبح مدنا حيث تحيط المنازل بالمعابد، وحيث يتزايد عدد الأقلية غير الزراعية، وتتوزع الوظائف بين الكهان والإداريين المدنيين وكتابهم ومرافقيهم وصناعهم[30].

وقد بدأت هذه المدن- الدول بالظهور في الجزء الجنوبي من بلاد النهرين (سومر)، وبناء على المعطيات الأثرية المتوافرة كان يوجد في مطلع الألف الثالث ق.م خمس عشرة مدينة- دولة[31] صغيرة، وفي الفترة الأولى من عصر السلالات الباكرة نحو 2750 ق.م تذكر النصوص السومرية أسماء ثلاث عشرة مدينة- دولة وتؤكد الأسطورة السومرية أن الآلهة كانت أول من أسس هذه المدن، وقد عبرت أقدم الأفكار الدينية لدى السومريين عن أن الإنسان قد خلق ليخدم الآلهة.

ويرى بعض الباحثين أن المدينة السومرية كانت تتألف من ثلاثة أقسام:

- القسم الأول: هو مدينة الخاصة (الداخلية أو الأقدم) وكان هذا القسم محاطا بأسوار خاصة به، ويحتوي المعابد والقصر، ومقرات الموظفين التابعين للبلاط، وبيوت المواطنين.
- أما القسم الثاني: فهو (الضاحية) التي تقرأ بالسومرية (أورد- بار- با) وهي مجموعة الحقول والمراعي التابعة للمدينة.
- أما القسم الثالث فهو الميناء.

أما مركز إدارة المدينة فيوجد عند البوابة، وقد احتوت المدن الكبرى مجموعة من البوابات التي تختص كل منها بحي من أحياء المدينة، حيث يوجد أمام البوابة فناء يجتمع فيه سكان المدينة (أو سكان الحي) لتدارس قضاياهم ومشاكلهم[32].

وفي الحقيقة لا يمكن أن نعمّم هذا التقسيم الثلاثي للمدن السومرية لأن كل مدينة منها نشأت في ظروف قد تختلف نوعا ما عن المدينة الأخرى.

وقد تجلى في البداية في مدن بلاد النهرين انقسام المجتمع إلى طبقات، بين سكان المعبد وسكان أحياء المدينة الأخرى، ولذلك نشأت الدولة من الحاجة إلى قمع تصارع الطبقات، وبما أنها قد نشأت في الوقت ذاته من ضمن الاصطدامات بين هذه الطبقات فهي كقاعدة عامة دولة الطبقة الأقوى السائدة اقتصاديا، والتي تصبح عن طريق الدولة الطبقة السائدة سياسيا كذلك.

وقد قاد التطور الزراعي والحرفي والعمراني إلى نشوء مجتمع جديد اختلف في تركيبه عن مجتمع العصور السابقة، سواء في تنظيم العلاقات المعاشية والإنتاجية بين أفراده، أو فيما يتعلق بالجهة التي رعت أمر تنظيم هذه العلاقات[33]. وهنا نصطدم بمشكلة نشوء الدولة، فهل تكونت نتيجة لولادة الملكية الخاصة، أم بسبب حاجة المجتمع الملحّة إلى وجود مؤسسات ترعى تنظيم العلاقات الإنتاجية بين أفراده على أسس جديدة؟.

لقد أصبح من المتعذر على المجتمع الجديد الاستمرار على نفس الأسس التي قام عليها خلال العصور السابقة للأسباب التالية:

- الزيادة الكبيرة في عدد السكان قياسا إلى العصور السابقة.
- تشعب فروع الاقتصاد وخاصة في شؤون الزراعة، كالعناية بالأراضي التي

اتسعت مساحتها، وتعقدت عملية ريّها، وزادت منتجاتها وصعب توزيعها، بالإضافة إلى تربية المواشي، وتنوع الحرف والصناعات.

- الدفاع عن كيان المجتمع الجديد، وحمايته من الأخطار والتهديدات الأجنبية

وحتى الداخلية التي أصبحت تهدده بالزوال[34].

إن هذا الواقع الجديد الذي نتج عن تفاعل الإنسان مع بيئته بشكل إيجابي، شكل الدافع الأساسي للتغيير في تنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في مجتمع بلاد النهرين، وأصبح التنظيم شرطا أساسيا من أجل ضمان تقدم المجتمع، واستمرار وزيادة إنتاجيته في جميع مجالات العمل المتوفرة، سواء الزراعية أو الصناعية.

وقد عكست مصطلحات لغة عصر السلالات الأولى، أو عصر البرونز القديم عملية انفصال المناصب الإدارية عن المناصب الدينية[35]، وتم دمج اقتصاد المعبد في اقتصاد القصر، على الرغم من أن إدارة المعبد كان لها بعض الاستقلالية في إدارة شؤونها الاقتصادية تحت إشراف الدولة[36].

كما أصبحت الألقاب تخص الحكام، وتسمي حكام المدن بأسماء لوجال- انسي "lugal-ensi" خاصة في مدن الجنوب مثل: كيش، لجش، نيبور، فهذه التسميات هي التي كانت في البداية تطلق على حكام الأراضي العائدة للمعبد، والمكلفين من الكاهن الحاكم الذي ساعدته ثرواته الاقتصادية أن يصبح أميرا ثم ملكا عبر مراحل فجر السلالات الباكرة[37].

والدليل على انتقال السلطة من المعبد إلى القصر، أو انتقال السلطة الروحية والدينية إلى سلطة مدنية، هو اكتشاف الأثريين لأحد الأبنية في مدينة كيش، والذي لم يكن يحتوي على معبد أو قاعة لممارسة الطقوس الدينية، وقد انتشرت الأبنية الكبيرة المحاطة بجدران ضخمة والتي ضمت داخلها مساحات واسعة، و ورشات تضم صناعا حرفيين، ولها صلة بأبنية خاصة مثل قاعة العرش، وقد اكتشفت كذلك العديد من القصور في اريدو، وتل خويرة وغيرها[38]. ويدل كل ذلك على تطور سياسي واجتماعي يشير إلى بداية انتقال السلطة إلى طبقة جديدة هم القواد العسكريون، والملوك، وبذلك بدأ القصر يهتم بأمور المجتمع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، في حين اقتصر دور المعبد على النشاط الديني والروحي، وممارسة الشعائر والطقوس الدينية مع بقائه ملهما للملوك في حمل واكتساب الطابع القدسي لاستمرارهم وبقائهم في السلطة.

وفي الأخير فإن دول المدن –التي قلنا- أنها كانت منفصلة عن بعضها ومستقلة في إدارة شؤونها السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى حد بعيد، إلا أنها كانت في صراعات ونزاعات مستمرة، إما من أجل السيطرة على المزيد من الثروة المائية ومساحات من الأراضي الزراعية الصالحة، أو من أجل السيطرة على الطرق التجارية البرية والنهرية التي تؤدي إلى موارد ومصادر المواد الخام، التي تستعمل في البناء والصناعات الحرفية، أو لغرض توحيد الدول بدولة واحدة وتحت سلطة مركزية، بداية من عهد لوجال زاجيزي إلى سرجون إلى حمورابي فيما بعد، وذلك لضمان أمنها وسلامتها، أو لتأمين سيادتها ودفاعها عن حقوقها.

الخاتمة:

من خلال دراستنا لهذا الموضوع المهم حول نشأة المدن وبداية التطور الحضاري في العراق القديم أمكننا الخروج بجملة من النتائج يمكن حصرها في النقاط التالية:

- أن اكتشاف الإنسان للزراعة يمثل منعرجا خطيرا في حياته نتيجة للتحولات الاقتصادية والاجتماعية الناتجة عن ذلك، وهو ما أدى إلى ضمان شبه أكيد للغذاء عن طريق إنتاجه بدلا من التنقل في سبيل جمعه والتقاطه.
- أن نشأة المستقرات والقرى الزراعية كانت في شمال العراق، في حين أن نموها وتطورها قد حصل في جنوب العراق في حدود الألف الخامس قبل الميلاد، وذلك عندما فهم الإنسان العراقي القديم الشروط اللازمة والضرورية لمعيشته وأدرك كيفية استغلالها.
- أن الطين يأتي في المقام الأول بين المواد الخام التي استخدمت في العراق في مختلف أوجه الحياة، حيث شيدت به البيوت والقصور والمعابد والزقورات وصنعت منه الأواني الفخارية وغيرها، كما أن اكتشاف المعادن واستخدامها في وقت لاحق، كلاهما شكل نقطة تحول جديدة في تاريخ التمدن والتطور الحضاري في العراق القديم، وكان المعبد في كل ذلك هو المسيطر على جميع نشاطات الإنسان القديم.
- وأخيرا فإن ظهور ما يسمى بنظام المدينة الدولة كان هدفه تحقيق منافع ذاتية، ومنها رغبة المدن القوية في بسط نفوذها على جيرانها، أو تصريف منتجاتها وتأمين سبل تجارتها عن طريق استبقاء علاقات الود معهم، أو رغبتها في سد مطالبها من المواد الأولية التي تتوفر في منطقة قريبة منها، و لم تتطلع أي دويلة منها إلى تحقيق وحدة وطنية مركزية إلا في عهود متأخرة.

الهوامش:

1 فاضل عبد الواحد علي، من سومر إلى التوراة، ط2، سينا للنشر، القاهرة-1996، ص ص16.15.

2 نفسه، ص55.

3 يقع كهف شانيدار في المنحدرات الجنوبية لجبال برادوست والمشرف على وادي الزاب الأعلى بالقرب من بلدة رواندوز في محافظة السليمانية، وقد قام بالحفريات فيه الأمريكي رالف سوليكي من جامعة ميشيغان ما بين 1951-1960. انظر: عيد مرعي، آثار الوطن العربي القديم –الجزيرة العربية وبلاد الرافدين،منشورات جامعة دمشق (2009-2010)، ص29.

4 ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ج1، ترجمة، نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت-1975، ص75.

5 فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص55.

6 جرمو: تعد جرمو أقدم المستوطنات الزراعية التي سكنها الفلاحون في العراق القديم، وهي عبارة عن تل يقع على بعد 35 كلم شرق كركوك في سفوح جبال زاجروس الشمالية، وقد قامت بالبحث والتنقيب فيه بعثة أثرية أمريكية من جامعة شيكاغو ما بين عامي (1948-1955) بقيادة روبرت بريد وود. للمزيد انظر: عيد مرعي، المرجع السابق، ص ص33-34.

7 تل العبيد: يقع في جنوب العراق على بعد ستة كيلومترات من غرب أور الواقعة على مقربة من مدينة الناصرية، وقد قامت بالبحث والتنقيب فيه البعثة البريطانية سنة 1919، ووجدت فيه وعلى سطحه آثارا وفخارا يقدر تاريخه بحدود (4000-3500ق.م). انظر: عبد الحكيم الذنون، الذاكرة الأولى- دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القديم لبلاد الرافدين-، ط1، دار المعرفة- دمشق 1988، ص19.

8 عمر محمد صبحي عبد الحي، الفكر السياسي وأساطير الشرق الأدنى –بلاد ما بين النهرين ومصر القديمة-، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت-1998، ص117.

9 عمر محمد صبحي عبد الحي، المرجع السابق، ص117.

10 فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص56.

11 حسونة: في عام1943 حدد مفتشو إدارة الآثار العراقية موقعا متمثلا برابية صغيرة تدعى "تل حسونة" الواقع في ناحية السورة بمحافظة نينوى، على بعد35 كلم جنوب الموصل، وهو تل يرتفع عن السهل المجاور بحوالي سبعة أمتار، وقد قام بالتنقيب في هذا الموقع كل من فؤاد صفر وسيتون لويد S.Lioyd انظر: سيتون لويد، آثار بلاد الرافدين من العصر الحجري القديم حتى الغزو الفارسي، تر: محمد طلب، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر- 1992، ص95.

12 حلف: يقع بالقرب من نهر الخابور وهو أحد روافد نهر الفرات على بعد 140 ميل شمالي غرب نينوى، وقد اكتشف هذا الموقع الألماني ماكس فرايهير فون أوبنهايم "M.F.Von Oppenheim" خلال حفرياته ما بين (1911-1913) و (1927-1929). انظر: عيد مرعي، المرجع السابق، ص ص 48.47.

13 فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص15.

14 نفسه، ص61.

15 تموم جمال، "نشوء المدن والسلطات (الدولة)"، مجلة مهد الحضارات ،العدد السادس والسابع، مركز الباسل للبحث والتدريب الأثري، دمشق-2009، ص17.

16 تموم جمال، المرجع السابق، ص ص17-18.

17 Benjamin R. Foster, Karen Polinger Foster, Civilizations of Ancient Iraq. Princeton University Press, Oxford-2009, P17.

18 تموم جمال، المرجع السابق، ص18.

19 هنري فرانكفورت، فجر الحضارة في الشرق الأدنى، د ط، ترجمة، ميخائيل خوري،مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، بيروت-1965، ص62.

20 فاضل عبد الواحد علي، المرجع السابق، ص75.

21 تموم جمال، المرجع السابق، ص19.

22 Jean-cl,Margueron, Les mésopotamiens, 2em édition, Picard, Paris-2003,p191.

23 فاضل عبد الواحد، المرجع السابق، ص78.

24 عبد العزيز صالح، الشرق الأدنى القديم – مصر والعراق- ،ج1 ،ط4 ، مكتبة الأنجلو المصرية- القاهرة-1990، ص476.

25 يصف هيرودوت المعابد التي شاهدها في بلاد النهرين وصفا دقيقا حيث يقول: " والمعبد بناء مربع وأبوابه من البرونز، وما يزال قائما في أيامي، وله برج قوي في وسطه، ويعلوه برج ثان فثالث حتى يبلغ عدد تلك الأبراج الثمانية، ويمكن ارتقاء تلك الأبراج جميعها بدرج حلزوني يتحلق على جانبه من الخارج...وفي أعلى البرج ينتصب معبد كبير..." انظر: هيرودوت، تاريخ هيرودوت، ترجمة، عبد الإله الملاح، مراجعة، د. أحمد السقاف و د. حمد بن صراي، ط2، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي-2007، ص115.

26 عبد الله الحلو، سوريا القديمة، الكتاب الأول – التاريخ العام من أقدم الأزمنة حتى أوائل العصر البيزنطي-، ط1، ألف باء الأديب، دمشق-2004، ص126.

27 Benjamin. Foster, Karen Polinger, op.cit. pp16-17.

28 Steven. J. Garfinkle, Private Enterprise in Babylonia at the End of the Third Millennium BC, A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Doctor of Philosophy in the Graduate School of Arts and Sciences, COLUMBIA UNIVERSITY-2000, p34.

29 إنانا: نجمة الزهرة وعشتار الساميين ابنة القمر نانا، تمثل الحب والتوالد، وسميت "ملكة السماء" وهناك الكثير من قصصها مع دموزي (تموز الراعي). للمزيد انظر: وديع بشور، سومر وأكاد، د ط، دمشق-1981، ص190.

30 توينبي، المرجع السابق، ص ص80.79.

31 نذكر من أهم هذه المدن: الوركاء، كيش، لجش، أوما، نيبور، أور....

32 جباغ قابلو و محمد فرعون، تاريخ الحضارة القديمة في الوطن العربي، منشورات جامعة دمشق، دمشق2005-2006، ص19.

33 Steven. Garfinkle, op.cit, p35.

34 توفيق سليمان، دراسات في حضارة غرب آسيا القديمة من أقدم العصور إلى عام1190 ق.م –الشرق الأدنى القديم (بلاد ما بين النهرين- بلاد الشام)، دار دمشق-1985، ص58.

35 Yokoyama, Miki, The administrative structure and economic function of public service *(ilkum)* of the Old Babylonian State in the Old Babylonian Period. A dissertation submitted in partial satisfaction of the requirements for the degree Doctor of Philosophy in Near Eastern Languages and Cultures, University of California, Los Angeles-1994,p54.

36 Ibid, p54.

37 تموم جمال، المرجع السابق، ص21.

38 نفسه، ص21.